

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ
الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ [الأحزاب: 47 - 48]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

تحقيق مضامين
الصفات
السابقة للنبي

لَمَّا ذَكَرَ ﷺ أَنَّهُ أَرْسَلَ نَبِيَّهُ ﷺ مُتَّصِفًا بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْجَلِيلَةِ
﴿شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا؛ أَمَرَ
بِتَطْبِيقِ ثَمَرَاتِهَا عَلَيْهَا فَقَالَ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ... الآية⁽¹⁾، فهذا
جزاءٌ لهؤلاء المؤمنين على ما قدّموا.

وَأَمَّا مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ لِلأُولَى؛ فَهِيَ أَنَّهُ ﷺ لَمَّا أَمَرَ نَبِيَّهُ ﷺ
بِمَا يَسُرُّ؛ نَهَاهُ عَمَّا يَضُرُّ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾⁽²⁾.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿فَضْلًا﴾: (فضل) أصلٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ⁽³⁾، وَمِنْ ذَلِكَ: الْفَضْلُ، وَهُوَ الزِّيَادَةُ وَالْخَيْرُ، وَالْإِفْضَالُ: الْإِحْسَانُ، وَمِنْهُ يُقَالُ: رَجُلٌ مُفْضِلٌ⁽⁴⁾، وَأَمَّا الْمُتَفَضِّلُ فَهُوَ الْمُدَّعِي لِلْفَضْلِ عَلَى أَقْرَانِهِ⁽⁵⁾، وَالْمُرَادُ بِالْفَضْلِ هُنَا: الثَّوَابُ.

(2) ﴿أَذُنَهُمْ﴾: (أذَى) أصلٌ يدلُّ على الشيءِ المَكْرُوهِ⁽⁶⁾، وَمِنْ ذَلِكَ: الْأَذَى، وَهُوَ الضَّرَرُ الْحَاصِلُ فِي النَّفْسِ أَوْ الْجِسْمِ⁽⁷⁾، وَالْمُرَادُ بِالْأَذَى هُنَا: الضَّرَرُ الْحَاصِلُ لَهُ ﷺ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ⁽⁸⁾.

(1) أبو حنّان، البحر المحیط: 488/8، والبقاعي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 373/15.

(2) البقاعي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 374/15، والشوكاني، فتح القدير: 331/4.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل)، وجبل، العجم الاشتقاق: (فضل).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).

(5) الرّاغب، المفردات: (فضل)، والسّمين الحلبي، غمدة الحفّاظ: (فضل).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذى).

(7) الرّاغب، المفردات: (أذى).

(8) الرّمخسري، الكشف: 547/3.

(3) ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ (وَكَيْلًا): جذر هذه الكلمة: (وكل)، وهو أصلٌ يدلُّ على الاعتمادِ على الغير⁽¹⁾، وَمِنْ ذَلِكَ: التَّوَكُّلُ، وهو أَنْ تعتمدَ على غيرِكَ وتجعله نائبًا عنكَ⁽²⁾، والتَّوَكُّلُ على الله: الاعتمادُ عليه، وتفويضُ التدبيرِ إليه⁽³⁾، والمرادُ بقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: اعتمدْ عليه، وفوضِ الأمرَ إليه، وقوله: ﴿وَكَيْلًا﴾: أي: مُتَوَلِّيًا أمورَ خلقه وحافظًا لها⁽⁴⁾؛ فَإِنَّ الوكيلَ هو مَنْ يُعتمدُ عليه في الأمورِ المهمةِ⁽⁵⁾.

❖ **الْمَعْنَى الإِجْمَالِي:**

وَبَشِّرْ - يَا مُحَمَّدٌ - أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ بِأَنَّ لَهُمْ ثَوَابًا عَظِيمًا بِإِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ وَتَضَعِيفِ حَسَنَاتِهِمْ أَضْعَافًا كَثِيرَةً، وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ، وَلَا تَسْمَعْ لِأَقْوَالِهِمُ الَّتِي تَدْعُوكَ إِلَى التَّقْصِيرِ فِي تَبْلِيغِ مَا أُرْسِلْتَ بِهِ، وَأَعْرِضْ عَنْ أَذَاهُمْ لَكَ فِي شَخْصِكَ، وَاصْبِرْ عَلَيْهِ، وَلَا يَمْنَعَكَ ذَلِكَ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا أُمِرْتَ بِهِ، وَفُوضِ الْأَمْرَ وَالتَّدْبِيرَ إِلَى اللَّهِ، وَثِقْ بِهِ؛ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ كُلَّ شَيْءٍ، وَحَسْبُكَ بِاللَّهِ قِيَمًا بِأُمُورِكَ، وَحَافِظًا لَكَ.

❖ **الإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:**

بلَاغةٌ عطفٍ ﴿وَبَشِّرْ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفٌ بحسبِ الظَّاهِرِ على جملةٍ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا﴾، وَبَيْنَهُمَا كَمَالُ الانْقِطَاعِ لاختلافِهما خَبَرًا وَإِنْشَاءً، لفظًا ومعنى، وذلك يوجبُ الفصلَ، فَتَحْمَلُ الواوُ هنا على أَنَّهَا عطفَتْ جملةَ بَشَارَةِ الْمُؤْمِنِينَ - أي: قِصَّةَ هذه البَشَارَةِ - على جملةِ إِرْسَالِهِ ﷺ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، فَيَكُونُ مَنْ عطفَ القِصَّةَ على القِصَّةِ⁽⁶⁾، وليسَ عطفًا لجملةٍ مُعَيَّنَةٍ على جملةٍ مُعَيَّنَةٍ

عنايةُ الله تعالى
بالنَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ
وكفَايَتُهُمْ
عدوَّهُم

عظيمُ عنايةِ
اللهِ بالنَّبِيِّ
وبالْمُؤْمِنِينَ معه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل)، والزَّيْدِيُّ، تاج العروس: (وكل).

(2) الزَّائِجُ، الْفُرْدَات: (وكل).

(3) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 58/22.

(4) ابن عطية، الْحَزَرُ الْوَجِيز: 390/4.

(5) السَّمِين، عُمدَةُ الْخَفَاف: (وكل).

(6) الْأَلُوسِي، رُوحُ الْعَانِي: 224/11.

فَيُطَلَّبُ مَعَهُ التَّنَاسُبُ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ فِي الْخَبَرِيَّةِ وَالْإِنْشَائِيَّةِ، وَفِي الْإِنْتِقَالِ مِنَ الْخَبَرِ إِلَى الْإِنْشَاءِ لَفَتْ وَاثَارَةً، وَتَنْبِيهًا عَلَى عَظِيمِ عَنَايَةِ اللَّهِ بِالْمُؤْمِنِينَ وَبَسَوِّقِ الْبُشْرَى الَّتِي تَسُرُّ قُلُوبَهُمْ، وَعَظِيمِ كَرَامَتِهِمْ عِنْدَهُ⁽¹⁾.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَبَشِّرِ﴾ مَعْطُوفًا عَلَى إِنْشَاءٍ مُقَدَّرٍ يَقْتَضِيهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا فَاشْهَدْ وَبَشِّرْ⁽²⁾، أَوْ: فَرَأَيْتَ أَحْوَالَ أُمَّتِكَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ⁽³⁾، وَفِي الْعَطْفِ عَنَايَةً بِكَوْنِ الْبَشَارَةِ وَارِدَةً بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ ﷺ بِأَحْوَالِ أُمَّتِهِ وَمَنْ يَسْتَحِقُّ الْبَشَارَةَ مِنْهُمْ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا.

بَلَاغَةُ الْأَمْرِ ﴿وَبَشِّرِ﴾:

أَمَرَ بِالتَّبَشِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ إِنْشَاءً لِلْمُؤْمِنِينَ بِسَلَامَةِ الطَّرِيقِ الَّذِي يَسْلُكُونَهُ؛ لِأَنَّهُمْ يَسْتَنْوِرُونَ بِهَدَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَقِفُونَ عِنْدَ حُدُودِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ، وَإِدْخَالًا لِلْفَرْحِ وَالسُّرُورِ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَحَثًّا لَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ لِأَنَّ السَّالِكَ فِي الطَّرِيقِ إِذَا عَلِمَ سَلَامَتَهُ، وَتَيَقَّنَ أَنَّهُ بَالِغُ نَهَايَتِهِ، زَادَ نَشَاطَهُ فِي الْمَسِيرِ.

نَكْتَةُ صِيغَةِ التَّفْعِيلِ ﴿وَبَشِّرِ﴾:

جِيءَ بِصِيغَةِ التَّفْعِيلِ فِي قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَزِيدِ الْإِعْتِنَاءِ بِالْبَشَارَةِ، وَالْحَثِّ عَلَى الْإِكْتِنَانِ مِنْهَا؛ لِأَنَّ السَّائِرَ فِي طَرِيقِ الْحَقِّ يَتَعَرَّضُ لِلْفِتَنِ وَالْمِحَنِ وَالْإِبْتِلَاءَاتِ مِنْ أَعْدَاءِ الدِّينِ، وَالْبَشَارَةُ مِمَّا يَقْوِي عَزْمَهُ عَلَى الْمَسِيرِ وَالِاسْتِقَامَةِ.

نَكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾:

جِيءَ بِصِيغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ فِي قَوْلِ الْحَقِّ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَبَشِّرِ

السَّالِكُ إِذَا
أَيَقِنَ بِالسَّلَامَةِ
نَشِطَتْ هِمَّتُهُ فِي
الْمَسِيرِ

تَثْبِيْتُ السَّائِرِينَ
فِي طَرِيقِ الْحَقِّ

أَهْلُ الْبَشَارَةِ هُمْ
أَصْحَابُ الْإِيمَانِ
الرَّاسِخِ

(1) أَبُو مُوسَى، دَرَاةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ لِسُورَةِ الْأَحْزَابِ، ص: 366.

(2) الْفَخْرُ الرَّازِي، مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ: 25/ 174.

(3) الْبِيضَاوِيُّ، أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ: 4/ 234، وَأَبُو السَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 7/ 108.

الْمُؤْمِنِينَ؛ لما تدلُّ عليه هذه الصَّيغَةُ مِنْ ثَبَاتِ الْإِيمَانِ واستقرارِهِ، وفي ذلك تنبيهٌ على أَنَّ المأمورَ بتبشيرِهِم هم أهلُ الإيمانِ الرَّاسخُ الَّذِينَ خالَطَتْ بِشاشَةُ الْإِيمَانِ قُلُوبَهُمْ، وصَحَّ لَهُمْ هذا الوصفُ⁽¹⁾، حتَّى امتزَجَ بدمائِهِم وعُروِقِهِم، وصارَ سَجِيَّةً فِيهِمْ.

دلالة الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ للتَّعْدِيَةِ؛ لِأَنَّ فعلَ التَّبَشِيرِ يتعدَّى بها غالبًا، فتفيدُ تقويةَ العاملِ، وقد تُحذفُ أحيانًا إيجازًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: 25].

قُوَّةُ تَعَلُّقِ
الْبِشَارَةِ
بِالْمُبَشَّرِينَ

نكتة التَّوَكُّيدِ في الآية الكريمة:

جاءَ بقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ مُصَدِّرًا بالتَّوَكُّيدِ؛ لإظهارِ الاعتناءِ بمضمونِهِ تكريمًا للمؤمنينَ، ولتقويةِ أثرِ البِشَارَةِ في نفوسِهِمْ؛ لِأَنَّ مقامَ التَّبَشِيرِ مقامٌ وعدٍ بَعطاءٍ، وهو مِنْ مَحَازٍ استعمالِ التَّوَكُّيدِ؛ لِيَتَيَقَّنَ الْمُبَشَّرُ بِحصولِ الْمُبَشَّرِ بِهِ، ويزدادَ سرورهُ الَّذِي هو غرضُ البِشَارَةِ.

بِشَارَةُ الْمُؤْمِنِينَ
حَاصِلَةٌ لَا رَيْبَ

دلالة اللَّامِ في ﴿بِأَنَّ لَهُمْ﴾:

اللامُ في قولِ الله ﷻ: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ للاستحقاقِ، وهي تَفِيدُ أَنَّ الْمُبَشَّرَ بِهِ مُسْتَحَقٌّ لِلْمُؤْمِنِينَ تَفَضُّلاً مِنْهُ ﷻ، جزاءً لَهُمْ على إيمانِهِمْ، وفيها أيضًا دلالةٌ على اختصاصِ الفضلِ الكبيرِ بِهِمْ، وأنَّهُ لا يتجاوزُهُم إلى غيرِهِمْ، ولا يَنازِعُهُم فِيهِ أَحَدٌ.

استحقاقُ
الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُبَشَّرِ
بِهِ وَاختصاصُهُمْ
بِهِ

غرضُ تقديمِ ﴿لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾:

الأصلُ في تقديمِ ما حَقُّهُ التَّأخيرُ القصرُ والاختصاصُ، كأنَّهُ سبحانه يقولُ: هذا الفضلُ الكبيرُ مقصورٌ عليهم دونَ غيرِهِمْ، وهم

(1) البقاعي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 15 / 373.

في الفضل
الكبير سرور
كبير للمؤمنين
باختصاصهم به
وقضه عليهم

مخصوصون به، والأصل أن يُقال: (بأن فضلاً كبيراً من الله لهم)، لكنَّ قُدِّمَ المُسْنَدُ ﴿لَهُمْ﴾؛ لما سبق ذِكْرُهُ وللعناية بالمُقَدِّمِ وتعجيل مَسَرَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ، ببيان أنَّهُمْ شَيْئاً يَسْتَحِقُّونَهُ، والتَّشْوِيقِ لِلْمَوْخَرِ - وهو الفضل الكبير - لِيَتِمَّكَنَ عِنْدَ وَرُودِهِ عَلَى النَّفْسِ غَايَةَ التَّمَكُّنِ، وَقُدِّمَ ﴿مِنْ اللَّهِ﴾؛ لزيادةِ الاغْتِبَاطِ بِعَطِيَّةِ الْكَرِيمِ الْمُتَفَضِّلِ، يضافُ إلى ذلك أنَّهُ في تأخيرِ المُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿فَضْلاً﴾ وصفته ﴿كَبِيراً﴾ رِعايَةً لتلاوُمِ الفواصلِ، وتقويةً للاختصاصِ المُستفادِ مِنَ اللَّامِ فِي ﴿لَهُمْ﴾.

دلالة ﴿مِنْ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِنْ﴾ في قولِ اللَّهِ ﷻ: ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ للابتداء، وهو يفيدُ أنَّ ابتداءَ الفضلِ الكبيرِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فهو الْمُتَفَضِّلُ بِهِ، والمُنْعَمُ عَلَيْهِمْ بِهِ.

سرُّ إظهارِ لفظِ الجلالة:

الظاهرُ أنَّ يُقالَ: (منهُ) لتقدُّمِ لفظِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾، لكنَّ عُدَلَ إلى الإظهارِ ففيل: ﴿مِنْ اللَّهِ﴾؛ لأنَّ في التَّبَشِيرِ بِالْفَضْلِ الْكَبِيرِ وَعَدًا، وفي التَّعْبِيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿اللَّهُ﴾ تحقيقُ لإنجازه؛ لأنَّه وعدٌ عظيمٌ لا يقدرُ عليه إلا الَّذِي لَهُ جَمِيعُ صفاتِ الْعَظَمَةِ وَالْجَلَالِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا لَفْظُ الْجَلَالَةِ⁽¹⁾، وذلك يَزِيدُ يَقِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَيْلِ الْمَوْعُودِ، ويحثُّهُمْ عَلَى الْمُسَارَعَةِ فِي الْخَيْرَاتِ وَالاصْطِبَارِ عَلَيْهَا.

سرُّ تقديمِ ﴿مِنْ اللَّهِ﴾:

أصلُ الكلامِ أن يُقالَ: (وبشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأنَّ فَضْلاً كبيراً من الله لهم)، والأصل في تقديم ما حَقُّهُ التَّأخيرُ الْقَصْرُ والاختصاصُ، كَأَنَّهُ ﷻ يقولُ: هذا الْعَطَاءُ وَالْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ، لا يقدرُ عليه أَحَدٌ غَيْرُهُ، ولذا يجبُ على الْمُؤْمِنِينَ ألاَّ يَبْحَثُوا عَنِ عَطَاءِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ

قضراً عطاء
المؤمنين على الله
ﷻ، لإبعادهم
عن تعلُّقهم
بغيره

(1) البقاعي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 374 / 15.

من غيره، فليأخذوا بالأسباب لكن عليهم ألا يتعلقوا بها؛ بل يكون تعلقهم بالمُسبَّب سبحانه وحده، كما أنَّ فيه عنايةً بالمُقَدَّم؛ لأنه من الله، وفيه تشويقٌ للمُؤَخَّر، يُضَافُ إلى ذلك أنَّ في التَّقديم رعايةً لتلاؤمِ الفواصل القرآنيَّة.

نكتة التعبير بالفضل:

الظاهر أنَّ المراد بالفضل في قوله ﷺ: ﴿فَضْلًا﴾: العطاء الذي يزيده المُعطي على العطية، والمعنى: أنَّ لهم ثوابَ أعمالهم الموعودَ به وزيادةً من عند ربهم، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26] (1)، وفي التعبير بالفضل إشارةٌ إلى أنَّه كرمٌ من الله وإحسانٌ (2)، وكونه جزاءً لأعمال المؤمنين لا يعني أنَّ لهم استحقاقًا حقيقيًا له، وإنما هو استحقاقٌ صوريٌّ، جعله الله وسيلةً للتَّغريبِ في العملِ الصَّالحِ.

المؤمنون لهم
الحسنى وزيادة

يحتمل أيضًا أنَّ يكون المراد بالفضل تفضيلهم على سائر الأمم، والمعنى: بشَّرتهم بأنَّ لهم زيادةً على سائر الأمم في الرتبة والشرف والمنزلة (3)، فيفيد الكلامُ تشريفَ الإيمانِ وأهله، وعُلُوَّ شأنهما عند الله ﷻ.

تشريف الإيمان
وأهليه، وعُلُوَّ
شأنهما عند الله

علَّة تنكير ﴿فَضْلًا﴾:

نُكِّرَ ﴿فَضْلًا﴾ لتعظيمه وتفخيمه وتكثيره؛ أي: فضلًا أي فضل، فضلًا عظيم الشأن والقدر، وافر المقدار، لا يُقَادَرُ قَدْرُهُ، ولا تُحِيطُ بكنهه العبارة، ولتذهب النَّفْسُ في تقديره مذاهبَ شتى، فالعطيَّةُ على قَدَرٍ مُعْطِيهَا، فما بالكَ بعطيَّةِ العظيمِ الكريمِ الرَّحِيمِ ﷻ؟

العطيَّةُ على
مِقْدَارِ مُعْطِيهَا

نكتة الوصف بالكبير:

وُصِفَ الفضلُ بكونه كبيرًا في قوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾؛

لا مثيل لأجر
المؤمنين في
نفاسيته لأتفه في
الجنة

(1) ابن التَّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 382 / 15، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 57 / 22.

(2) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 108 / 7.

(3) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 108 / 7.

لزيادة تفخيم شأنه؛ فكونه من الله كبير، فكيف إذا انضم إلى ذلك هذا الوصف⁽¹⁾؛ وللدلالة على نفاسته⁽²⁾، وكونه فائقاً في نوعه⁽³⁾، ولأنه يناسب تضييف الحسنه من عشرة أمثالها إلى ما لا يعلمه إلا الله⁽⁴⁾.

ومن العلماء من فسّر الفضل الكبير بالجنة، وذكر أنه حيث وقع في القرآن: (فضل كبير) و(أجر كبير) فالمراد الجنة⁽⁵⁾، فيكون ذلك من عادات القرآن الكريم في استعمال الألفاظ والتراكيب، وفي هذا التعبير توسعة للرّجاء؛ لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يبشّر المؤمنين بأن لهم عند الله الجنة⁽⁶⁾.

بلغة عطف «وَلَا تُطِعْ»:

تَيْقُظُ الدَّاعِيَةَ
لأَعْدَاءِ دَعْوَتِهِ

قوله تعالى شأنه: «وَلَا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ» معطوف على قوله: «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ»⁽⁷⁾، وفائدة هذا العطف بيان ما ينبغي عليه ﷺ في التعامل مع الكافرين والمنافقين بعد بيان ما ينبغي عليه من تبشير المؤمنين وتبشيرهم، وفيه إشارة إلى أن الداعي إلى الله معرض لإيذاء أعداء الدعوة وإغرائهم له لترك ما هو عليه من الحق، فينبغي عليه أن يكون حذراً ومتيقظاً لدسائسهم ومكائدهم.

بلغة النهي عن الإطاعة:

النَّبَاتُ عَلَى
الْحَقِّ وَعَدَمُ
الِاتِّفَاتِ لِلْبَاطِلِ
أَوْ مَدَارَاةِ أَهْلِهِ
بِسِمَةِ الدَّاعِيَةِ

النهي في قوله ﷺ: «وَلَا تُطِعْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ» ليس على ظاهره؛ لأنه ﷺ معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه، ويُشِيرُونَ به عليه، ولا يُتَوَقَّعُ منه الإطاعة حتى يُنْهَى عنها⁽⁸⁾؛ بل هو

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 174 / 25.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 374 / 15.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 57 / 22.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 374 / 15.

(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 441 / 3.

(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 389 / 4.

(7) أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 363.

(8) القنوي، حاشية على تفسير البضاوي: 382 / 15.

محمولٌ على الدوام والثبات على ما كان عليه من عدم إطاعتهم⁽¹⁾، ويُؤيد ذلك استعمال صيغة المضارع المجزوم، والمعنى: استمرَّ على عدم إطاعتهم، وفي ذلك إعلامٌ لهم بأنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يقبلُ أقوالهم؛ لِيُأَسُوا مِنْ ذَلِكَ⁽²⁾، أَوِ النَّهْيُ وَرَادٌّ عَلَى سَبِيلِ التَّهْيِيجِ وَالْإِلْهَابِ⁽³⁾، كَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّ مِنْ شَأْنِ النَّبِيِّ الْإِعْرَاضَ عَنْ طَاعَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَلَا تُطِيعُهُمْ.

يَحْتَمِلُ كَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ النَّهْيُ فِي الْحَقِيقَةِ لِأَمَّتِهِ⁽⁴⁾ وَإِنْ كَانَ فِي الظَّاهِرِ لَهُ، فَيَكُونُ فِي الْكَلَامِ تَعْرِیْضٌ بغيرِهِ مِنْ أَفْرَادِ أَمَّتِهِ⁽⁵⁾، وَنَكْتَةٌ تَوْجِيهِ النَّهْيِ لَهُ مَعَ أَنَّ الْمُرَادَّ غَيْرُهُ الْمُبَالِغَةُ، بِإِخْرَاجِ الْكَلَامِ فِي صُورَةٍ نَهْيٍ مَنْ لَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ ارْتِكَابُ الْمُنْهْيِ عَنْهُ، فغَيْرُهُ أَوْلَى بِذَلِكَ، وَوَرَاءَ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَنْ تَكُونَ حَذِرَةً فِي مَسِيرَتِهَا مِنْ هَذَيْنِ الصَّنَفَيْنِ الْخَبِيثَيْنِ، فَلَا تُطِيعُهُمَا فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ دِينِهَا وَدُنْيَاهَا، وَلَا تُعَوَّلُ عَلَيْهِمَا فِي مَشُورَةٍ⁽⁶⁾.

يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُّ النَّهْيَ عَنْ مَدَارَاتِهِمْ فِي أَمْرِ الدَّعْوَةِ، وَاسْتِعْمَالِ لِيْنِ الْجَانِبِ فِي التَّبْلِیْغِ، وَالْمَسَامَحَةِ فِي الْإِنْذَارِ، وَقَدْ كُنِيَ عَنْ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَنْ إِطَاعَتِهِمْ مِبَالِغَةً فِي الزَّجْرِ وَالتَّنْفِيزِ عَنِ الْمُنْهْيِ عَنْهُ، بِنَظْمِهِ فِي سَلَكِ الْإِطَاعَةِ، وَتَصْوِيرِهِ بِصُورَتِهَا⁽⁷⁾.

عَلَّةُ ذِكْرِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ:

ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ هَذَا الصَّنَفَانِ؛ لِأَنَّهُمَا أَخْبَثُ خَلْقِ اللَّهِ، وَكَانَ مِنْ دَابَّهِمُ السَّعْيِ إِلَى إِمَالَةِ

على الأمة أن
تحذر الكافرين
والمنافقين

المبالغة في الزجر
والتنفيز عن
الإطاعة

الكفر والنفاق
خطران مُحْدِقَانِ
بالأمة

(1) الرَّمْضَشَرِيُّ، الْكَشَافُ: 547/3، وَابْنُ بَرٍ، أَنْوَارُ التَّنْزِيلِ: 176/7.

(2) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 251 - 250/21.

(3) الرَّمْضَشَرِيُّ، الْكَشَافُ: 547/3.

(4) الْخَفَاجِيُّ، عُنَايَةُ الْقَاضِي: 176/7.

(5) الشُّوْكَانِيُّ، فَتْحُ الْقَدِيرِ: 331/4.

(6) أَبُو مُوسَى، دَرَاةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ لِسُورَةِ الْأَحْزَابِ، ص: 367.

(7) أَبُو السَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 108/7.

النَّبِيِّ ﷺ عَنِ الْحَقِّ، وَحَثَّهُ عَلَى إِطَاعَتِهِمْ فِيمَا يُشِيرُونَ بِهِ عَلَيْهِ، وَمَدَاهَنَتِهِمْ فِي الدِّينِ⁽¹⁾، وَهَذَانِ الصَّنَفَانِ أخطرُ أعداءِ الأُمَّةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ؛ فَأَحَدُهُمَا عَدُوٌّ مِنَ الدَّاخِلِ، يَنْخَرُ فِي جَسَدِهَا، وَيَسْعَى إِلَى تَفْتِيتِهَا وَإِضَاعِهَا، وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِهَا الدَّوَائِرَ، وَالْآخَرُ عَدُوٌّ مِنَ الْخَارِجِ، يَكِيدُ لَهَا بِأَنْوَاعِ الْمَكَائِدِ، وَلَا يَرْقُبُ فِيهَا إِلَّا وَلَا ذِمَّةً، وَلَا يَدْخُرُ فُرْصَةً لِلانْقِضَاضِ عَلَيْهَا وَنَهَشِ جَسَدِهَا مُسْتَعِينًا بِالصَّنَفِ الْأَوَّلِ.

دلالة التعريف في ﴿الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾:

وجوب أخذ
الجذر من
جميع الكافرين
والمنافقين

(أل) في ﴿الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ موصولة، واسمُ الفاعل صلَّتها في الكلمتين، والموصول من صيغ العموم، والتقدير: ولا تطع كلَّ الذين كفروا ولا كلَّ الذين نافقوا، بقرينة مقامِ النهي عن إطاعة مَنْ يَكِيدُ لِلإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَيَتَرَبَّصُ الدَّوَائِرَ بِرَأْسِ الْمُؤْمِنِينَ ﷺ، وَفِي ذَلِكَ تَبْيِهُ عَلَى ضَرُورَةِ الْحَذَرِ مِنْ جَمِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ؛ لِأَنَّ مَا فِيهِمْ مِنْ نَوَازِعِ الشَّرِّ وَالْفُسَادِ وَمَحَارِبَةِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ أَمْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَهُمْ عَلَى اخْتِلَافِ أَمَكْنَتِهِمْ وَأَزْمَنَتِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ إِيقَاضٌ لِلأُمَّةِ وَتَحْذِيرٌ دَائِمٌ مِنْ هَذَيْنِ الصَّنَفَيْنِ.

براعة الطَّبَاقِ:

غم الكافرين
سرور المؤمنين

فِي ذِكْرِ الْكَافِرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ﴾ بَعْدَ ذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ رَعَايَةً لِحُسْنِ مِنَ الْمُحْسَنَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ، وَهُوَ الطَّبَاقُ، وَمِنْ بَلَغَتِهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّهُ يَجْعَلُ أَمَامَ النَّظَرِ صُورَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ تُشَرُّ عَلَيْهِمُ الْوَأْنُ الْحُبُورِ وَالسُّرُورِ، وَصُورَةً لِلْكَافِرِينَ وَهُمْ يُنْهَى عَنِ إِطَاعَتِهِمْ وَمُلَايَنَتِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ غَمٌّ لَهُمْ، وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي غَمِّهِمْ زِيَادَةً لِسُرُورِ الْمُؤْمِنِينَ.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14 / 202.

سرّ تقديم ﴿الْكَافِرِينَ﴾:

قَدَّمَ الْكَافِرُونَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾؛ لِيَكُونَ ذِكْرُهُمْ عَقِبَ ذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُبَشِّرِينَ بِالْفَضْلِ الْكَبِيرِ، فَيَكُونَ أَنْسَبَ بِالطَّبَاقِ، وَلِأَنَّ أَمْرَ كُفْرِهِمْ وَمَحَارِبَتِهِمْ لِلْإِسْلَامِ ظَاهِرٌ؛ لِأَنَّهُمْ مَجَاهِرُونَ بِالْكَفْرِ؛ فَالْتَّهْيُ عَنْ إِطَاعَتِهِمْ أَوَّلَى، وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَيُخِيطُونَ الْكَفْرَ، وَيُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ، وَلِذَلِكَ أُخِّرَ ذِكْرُهُمْ، وَإِنْ كَانُوا عَوْنًا لِلْكَفْرِ فِي الْوَاقِعِ؛ فَقَدْ كَانُوا يُدَبِّرُونَ مَعَهُمُ الْمَكَائِدَ، وَيُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ يَنْصَحُونَ النَّبِيَّ ﷺ.

لِجَاهِزٍ بِالْكَفْرِ
أَوَّلَى بَعْدَ
الإِطَاعَةِ

نكتة التَّعْبِيرِ بِاسْمِ الْفَاعِلِ:

عَبَّرَ بِصِيغَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ الْمَنْهِيَّ عَنْ إِطَاعَتِهِمْ قَدْ رَسَخُوا فِي الْكَفْرِ وَالنِّفَاقِ، وَاشْتَهَرُوا بِهِذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ، وَفِي هَذَا مَزِيدٌ تَحْذِيرٍ مِنْهُمْ وَمِنْ خَبِيثٍ مَكَائِدِهِمْ؛ لِأَنَّ مَنْ ضَرَبَتْ نَفْسُهُ بِالشَّرِّ وَالْفُسَادِ وَمَعَادَاةِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ لَا يُؤْتَمَنُ عَلَى شَأْنٍ مِنَ الشُّؤْنِ، وَلَا يُوْخَذُ بِزُخْرَفِ قَوْلِهِ.

الْكَافِرُونَ
وَالْمُنَافِقُونَ لَا
أَمَانَةَ لَهُمْ

بلاغة اختصاص الكافرين والمنافقين بالذكر:

اقتصر على ذكر الكافرين والمنافقين دون غيرهم لوجوه؛
أَحَدُهَا: أَنَّ ذِكْرَ الْغَيْرِ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ غَيْرَهُمَا لَا يَطْلُبُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ الْإِتِّبَاعَ، وَلَا يَتَوَقَّعُ أَنْ يَصِيرَ مُطِيعًا لَهُ؛ بَلْ يَقْصِدُ اتِّبَاعَهُ وَلَا يَكُونُ عِنْدَهُ إِلَّا مُطَاعًا، وَالثَّانِي: هُوَ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ: وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ مَنَعَهُ مِنْ طَاعَةِ الْكُلِّ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ طَاعَتَهُ فَهُوَ كَافِرٌ أَوْ مُنَافِقٌ؛ لِأَنَّ مَنْ يَأْمُرُ النَّبِيَّ بِأَمْرٍ أَمَرَ إِيْجَابٍ مُعْتَقِدًا عَلَى أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَفْعَلْهُ يَعَاقِبُهُ بِحَقِّ يَكُونُ كَافِرًا⁽¹⁾، أَمَّا الثَّالِثُ

لَا يُتَصَوَّرُ عِدَاوَةٌ
أَحَدٍ لِلْإِسْلَامِ
غَيْرِهِمْ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25 / 154.

فَإِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمْ مِنَ الْمَجُوسِ دَاخِلُونَ فِي عَمُومِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ؛ لَأَنَّهُمْ إِنَّ أَعْلَنُوا كُفْرَهُمْ وَعَدَمَ إِيمَانِهِمْ فَهُمْ دَاخِلُونَ ضِمْنَ الْكُفَّارِ، وَإِنْ أَعْلَنُوا الْإِسْلَامَ نِفَاقًا، فَهُمْ دَاخِلُونَ فِي زَمْرَةِ الْمُنَافِقِينَ.

بِلَاغَةُ عَطْفٍ ﴿وَدَعُ﴾:

قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَدَعُ أَذْنَهُمْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾، وَفَائِدَةُ الْعَطْفِ أَنَّهُ ﷺ بَعْدَمَا نَهَى نَبِيَّهُ ﷺ عَنْ إِطَاعَةِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ؛ لِمَا فِي إِطَاعَتِهِمْ مِنَ الْمَضَرَّةِ وَالْأَذَى؛ صَرَّحَ بِمَا اقْتَضَاهُ النَّهْيُ السَّابِقُ، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ بِتَرْكِ أَذَاهُمْ، وَعَدَمِ الْإِلْتِمَاتِ إِلَيْهِ⁽¹⁾، وَفِي ذَلِكَ تَكْمِيلٌ لِمَقْصُودِ قَطْعِ الطَّرِيقِ عَلَى مَنْ يَرِيدُ إِضْعَافَ عَزِيمَتِهِ ﷺ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَفِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ أَيْضًا إِلَى أَنَّ أَذَاهُمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ مُتَحَقِّقٌ، أَطَاعَهُمْ أَمْ لَمْ يُطِيعَهُمْ، فَإِنْ أَطَاعَهُمْ حَلَّ الْأَذَى فِي دِينِهِ، وَإِنْ لَمْ يُطِيعَهُمْ آذَوْهُ فِي نَفْسِهِ وَأَصْحَابِهِ.

بِلَاغَةُ الْأَمْرِ ﴿وَدَعُ أَذْنَهُمْ﴾:

يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فَعْلُ (دَعُ) مُسْتَعْمَلًا فِي حَقِيقَتِهِ، وَيُرَادُ بِتَرْكِ أَذَى الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ عَدَمُ مَعَاقِبَتِهِمْ، وَأَنْ يَتَرَفَّعَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ مُؤَاخَذَتِهِمْ عَلَى مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ فِي شَأْنِهِ، وَهَذَا إِعْرَاضٌ عَنْ أَذَى خَاصٍّ لَا عَمُومَ لَهُ، فَلَيْسَتْ آيَاتُ الْقِتَالِ بِنَاسِخَةٍ لَهُ⁽²⁾؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ عَنْ أَذَاهُمِ الْمُتَعَلِّقِ بِهِ ﷺ فِيمَا يُشِيعُونَهُ حَوْلَهُ مِنَ الْأَكَاذِبِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ ضُرُوبِ الْأَذَى، لَا عَنْ الْأَذَى النَّاجِمِ عَنْ مُحَارَبَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَوْجِبُ أَنْ يُكْفَ عُدَاؤُهُمْ، وَتُكْسَرَ شُوكَتُهُمْ، وَتُظْفَأَ نِيرَانُ حُرُوبِهِمْ.

يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ (دَعُ) مُسْتَعْمَلًا مُجَازًا فِي عَدَمِ الْإِكْتِرَافِ

كَمَا لَمْ يَدْعُ
إِطَاعَةَ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ بِتَرْكِ
أَذَاهُمْ

الَّتِي تَرَفَّعَ عَنْ
مُجَارَاةِ أَهْلِ
الرِّذَالِ وَالصَّبْرِ
عَلَى أَذَاهُمْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ

(1) الْبِقَاعِيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 374/15.

(2) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 58/22.

بما يقولونه مما يُؤذي⁽¹⁾، وفي ذلك حثُّ له ﷺ على مزيدٍ مِنَ الصَّبْرِ والتَّجَلُّدِ في مقارعةِ أهلِ الباطلِ، وتنبيهٌ للدُّعاةِ مِنْ بعدهِ على وجوبِ الاستمرارِ على مجاهدةِ المُبْطِلِينَ، وأهلِ البِدْعِ والضَّلالاتِ، واحتمالِ ما يُلاقونَ في سبيلِ اللَّهِ مِنْ أنواعِ الأذى⁽²⁾.

دلالة إضافة الأذى إليهم:

الظاهرُ أنَّ الإضافةَ في قوله تعالى: ﴿أَذْنُهُمْ﴾ مِنْ إضافةِ المصدرِ إلى الفاعلِ⁽³⁾، والمعنى: أعرَضَ عن أقوالِهِمْ وما يُؤذونَكَ بهِ، ولا تشتغلُ بهِ⁽⁴⁾، واصبرْ على ما ينالُكَ منهم؛ فَإِنَّ اللَّهَ تعالى ينتقمُ منهم، ويجعلُ لك أجراً عظيماً⁽⁵⁾.

ويحتملُ أنْ تكونَ الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿أَذْنُهُمْ﴾ مِنْ إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ؛ أي: دَعَّ أَذْكَ إِيَّاهُمْ⁽⁶⁾، ولا تُعاقِبَهُمْ، واصفَحْ عن زَلِيلِهِمْ⁽⁷⁾، وتسميةُ ذلكِ إيذاءً لكونِهِ في صورةِ الإيذاءِ، وإلا فما هو للجزاءِ لا يكونُ إيذاءً⁽⁸⁾.

نكتة اختيار الأذى دون الإيذاء:

قيل: ﴿أَذْنُهُمْ﴾، ولم يُقَلَّ: (إيذاءهم)؛ لأنَّ الأذى أَوْجَزُ؛ لأنَّ حروفَهُ أَقْلُ، وقد بُيِّنَتْ هذه الآيةُ وما قبلُها على الإيجازِ، فيكونُ الأذى أنسبَ، وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّ أذى الكافرينَ والمنافقينَ وإنْ كَثُرَ وعُظِمَ فعاقبَتُهُ إلى زوالٍ وقَلَّةٍ.

بلغة عطف ﴿وَتَوَكَّلْ﴾:

قوله جَلَّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿وَدَعْ

احتمالُ الأذى
في سبيلِ الله
وحُبْسُ النَّفْسِ
عن إنفاذِ غَضَبِها

الأنبياء لا
يحرصون على
الانتقام بقُدْرِ
الإصلاح

أذى الكافرينَ
والمنافقينَ إلى
اضمحلالِ

مَنْ رَفَعَ الْأَمْرَ لِلَّهِ
كفاهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 58 / 22.

(2) محمد أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 367.

(3) الرَّمْخَشَرِيُّ، الكَشَاف: 547 / 3.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 234 / 4، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 202 / 14.

(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 382 / 15.

(6) الرَّمْخَشَرِيُّ، الكَشَاف: 547 / 3.

(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 202 / 14.

(8) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 382 / 15.

أَذْنَهُمْ، ونكتة العطف: أنه لما كان ترك المؤذي والإعراض عنه شاقاً على النفس ذكر الدواء، وهو التوكّل على الله⁽¹⁾، وكأنّ تفويض الأمر لله هو علّة الأمر بترك أذى الكافرين والمنافقين؛ فإنّ الله كاف عبده ﷺ شرورهم، وناصره ومظهره عليهم، وله في إمهالهم حكم، حتّى إذا أخذهم لم يفلتهم.

بلاغة الأمر بالتوكّل:

العبد يفوض
أمره إلى الله
على الدوام

أمر الله نبيه الكريم ﷺ بالاعتماد عليه، وتفويض الأمر والتدبير إليه، فقال: **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾**؛ أي: اعتمد على الله في تبليغ الرسالة، وفي كفايته إياك شرّ عدوك⁽²⁾ وفي كل شيء، ومعلوم أنّ النبي ﷺ متوكّل على الله، فليس المراد بالأمر إحداث التوكّل؛ بل الاستمرار عليه، واتّخاذُه زاداً وعدّة لكل خطبٍ ملّم، فالعبد لا ينفك عن ربّط الوسائل والمقاصد بالله، وفي الكلام إيناس له ﷺ وتشبّه⁽³⁾، وتعليم للدعاة ألاّ يركنوا إلى ما عندهم من الحجج والدلائل والأسباب المادّية والمعنويّة؛ بل يضمّنوا إلى ذلك طلب المدد والعون والحفظ من الله؛ فإنّ طريق الدّعوة إلى الله شائكٌ عظيم الخطر.

دلالة حرف الجرّ «على»:

لا يخيب من
استجار بالله

حرف الجرّ «على» في قوله تعالى: **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾** للاستعلاء المجازي، وفيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون للعبد متعلّق إلاّ الاعتماد على الله، فتفويض الأمر إليه استمساك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، وطرح للأحمال والأثقال في ساحة من لا تضعع عنده الحقوق، ولا يخيب من فوض الأمر إليه، ولا يضام من التجأ إلى حماه، فهو مُعتمد على العليّ المتعالي، فالنبي ﷺ مُستَعِلّ بتوكّله على الله على كل شيءٍ دونه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 374 / 15.

(2) الرّمخشري، الكشف: 547 / 3، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 58 / 22.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 202 / 14.

سرُّ إظهار لفظ الجلالة:

الظاهرُ أن يُقال: (وتوكَّلْ عليه)؛ لتقدُّم ذكر لفظ الجلالة، لكنَّ عُدلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ فقيل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ لتقوية داعي الامتثالِ بالمأمور؛ فالحمدُ سبحانه هو الكافي، وهو النَّاصرُ، ولا رادَّ لأمره، وهو الحيُّ الذي لا يموتُ، فلا يخشى المتوكِّلُ عليه أن يَلَحِّقَهُ ضعفٌ أو موتٌ، وأيضاً في إظهارِ لفظِ الجلالةِ هنا، وفي قوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ إشعارٌ بمعِيَةِ الله تعالى للنَّبِيِّ ﷺ في جميع مراحلِ دعوته، وتبْيَهُ على أنَّه لا ملجأَ إلا لله، ولا اعتمادَ إلا على الله، وتقويةٌ لاستقلالِ الجملة، بحيثُ تصلحُ لأن تُستعملَ استعمالَ الأمثالِ الجارية.

التَّوَكَّلُ الحَقُّ
يكونُ على الحيِّ
الَّذي لا يموتُ

نكتةٌ إطلاقِ التَّوَكَّلِ:

قيل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ بإطلاقٍ، ولم يُقيَّدَ بمعينٍ، فلم يُقَلَّ: (وتوكَّلْ على الله في دعوتك)، أو (في كذا وكذا)؛ ليكونَ التَّوَكَّلُ على الله شاملاً لكلِّ شأنٍ مِنْ شُؤْنِهِ ﷻ، والمعنى: وتوكَّلْ على الله في كلِّ ما تأتي وتَدْرُ مِنْ الشُّؤْنِ الَّتِي مِنْ جَمَلَتِهَا شَأْنُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، والصَّبْرُ على أذى الكافرينَ والمنافقينَ؛ فَإِنَّهُ ﷻ يكفيكَ إِيَّاهُمْ⁽¹⁾، وفي ذلك تعليمٌ للعبدِ أن يُظهِرَ الافتقارَ لله في كلِّ شيءٍ، فذلك مِنْ علاماتِ العبوديةِ الصادقةِ.

كلُّ عبدٍ مُفتقرٌ
إلى الله في كلِّ
شيءٍ

بلادةٌ جملةِ الفاصلة:

الظاهرُ أن الواوَ في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ استئنافيَّةٌ، والجملةُ تذييلٌ لجملةِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، والمعنى: فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْوَكِيلُ الكافي في الوكالةِ⁽²⁾، وفيها تأكيدٌ للأمرِ السَّابِقِ ومزيدٌ حثٌّ عليه؛ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ الْوَكِيلُ قد لا ينهضُ بجميعِ الأمورِ؛ أَخْبَرَ سبحانه بأنَّ

النَّبِيُّ ﷺ
منصوِّرٌ على
أعدائِهِ

(1) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 108 / 7، والشوكاني، فتح القدير: 4 / 332.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 59 / 22.

التَّوَكَّلْ عَلَيْهِ كَافٍ⁽¹⁾، وفي الكلام وعدٌ بنصرِ النَّبِيِّ ﷺ على أعدائِهِ مِنَ الكَافِرِينَ والمنَافِقِينَ⁽²⁾.

سُرُّ حَذْفِ مَفْعُولٍ ﴿وَكَفَى﴾:

اللهُ كافيٌ كلِّ
مَن اعتمدَ عليه
وقصَّده

حُذِفَ مَفْعُولُ ﴿وَكَفَى﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ لإفادَةِ العمومِ؛ أي: كَفَى كلَّ أَحَدٍ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ؛ فهو سبْحَانَهُ القَوِيُّ العَزِيزُ الَّذِي لَا تَوُدُّهُ كَثْرَةُ المسَائِلِ والحَاجَاتِ، وَلَا تَخْتَلِطُ عَلَيْهِ الأَحْوَالُ والشُّؤُونُ، وَلَوْ أَنَّ الخَلْقَ كُلَّهُمْ وَرَدُّوا سَاحَةَ كَرَمِهِ، وَفَوَّضُوا إِلَيْهِ أُمُورَهُمْ، وَسَأَلُوهُ حَاجَاتِهِمْ - لِأَصْدَرَهُمْ جَمِيعًا، وَلَمْ يَنْقُصْ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِهِ شَيْئًا.

بِلاغَةُ التَّعْبِيرِ بِالْكَفَايَةِ:

الكفايةُ أن يجد الإنسانُ ما يكفيه، سواء أكانت الكفاية من نفسه أم من غيره، ويلزمُ مِنَ الكفاية ألا يحتاج الإنسان لأحدٍ؛ إذ عنده ما يكفيه.

دَلَالَةُ الْبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾:

مِنْ عِلَامَاتِ
التَّوَكُّلِ الثَّقَّةُ
بِكفايةِ الله

الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ جَلَّ مِنْ قَائِلِ: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ صِلَةٌ لِلتَّأْكِيدِ⁽³⁾؛ أي: تَأْكِيدِ كَوْنِ الْكَافِي هُوَ اللَّهُ⁽⁴⁾، وَالْأَصْلُ: وَكَفَى اللَّهُ وَكِيلًا، وَفِي الْإِتْيَانِ بِالْبَاءِ زِيَادَةٌ بَثٌّ لِلطَّمَأْنِينَةِ فِي نَفْسِ الْمُتَوَكِّلِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُخَيِّبُ مَسْعَاهُ، وَفِي الْكَلَامِ إِشَارَةٌ إِلَى مَحْذُوفٍ عَلَى رَأْيِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ، كَأَنَّهُ حَذَفَ فَاعِلُ ﴿وَكَفَى﴾ وَحَذَفَ فَعَلَ الأَمْرَ مِنْهُ، وَأَصْلُ الْكَلَامِ: (وَكَفَى اللَّهُ وَكِيلًا؛ فَاسْتَفِدْنَا مِنْ هَذَا وَاكْتَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)، وَيُعَبَّرُ الْبَعْضُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ الْفِعْلَ الْمَاضِيَ ﴿وَكَفَى﴾ بِمَعْنَى

(1) البقاعي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 374 / 15.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4 / 390.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 59 / 22.

(4) البقاعي، نَظْمُ الدُّرَرِ: 374 / 15.

الأمر، وعليه فتكون الباء أصلية لا زائدة، ويكون المعنى: واكتف بالله وكيلًا.

بلادة إظهار لفظ الجلالة:

مُقْتَضَى الظاهر أَنَّ يُقَالَ: (وكفى به وكيلًا)، لكنَّ عِدْلَ إلى الإظهار في قوله تعالى شأنه: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾؛ لتعليل الحكم؛ فإنَّ كفاية الوكيل بسبب كونه ذا العظمة والجلال الذي لا يُعْجِزُهُ شيءٌ، ولتأكيد استقلال جملة التذليل⁽¹⁾، بحيث تكون جارية مجرى الأمثال، ولو استعمل الضمير لتوقفت الجملة على سابقتها، وما أفادت الاستقلال، وفي الكلام إشارة إلى أنَّ الكفاية التامة لا تكون إلاَّ مِنَ اللَّهِ.

بلادة التمييز:

قوله جَلَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَكَيْلًا﴾ تمييزٌ، والغرض منه زيادة التأكيد في تحقيق كفايته تعالى لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ⁽²⁾، ولذلك نرى الأمر بالتوكل على الله والإشارة إلى كفايته - يتكرران في كتاب الله كثيرًا؛ ليطبع في القلوب هذا المعنى الجليل؛ فإنَّ القلب إذا أحسن التوكل على الله، وأيقن بكفاية ربه - تتكوَّن فيه طاقة هائلة، تُمدُّ بزادٍ لا ينفد في مواقفه الصعبة⁽³⁾.

براعة ردِّ العجز على الصدر:

في قوله تعالى شأنه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ مُحَسَّنٌ لفظيًّا، وهو ردُّ العجز - وهو ﴿وَكَيْلًا﴾ - على الصدر، وهو ﴿وَتَوَكَّلْ﴾؛ لما بين اللَّفْظَيْنِ مِنَ التَّجَانُسِ في الاشتقاق، وفائدته إكساء الآية ثوب التناسب والتلاؤم اللفظي، والإشارة إلى أَنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَجَدَ اللَّهَ خَيْرَ وَكِيلٍ وَكَافٍ فِي الْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ.

الله هو الوكيل
الكافي في الوكالة

التوكل على الله
زاد المؤمن

الله خير وكيل
وكاف لعباده
المؤمنين

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 108 / 7، والالوسي، روح المعاني: 224 / 11.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 375 / 15.

(3) أبو موسى، دراسة تحليلية لسورة الأحزاب، ص: 367.

بلادةً للمقابلة:

تتميم التشريف
بالتكليف

لما وصف ﷺ نبيه ﷺ بخمس صفات في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ١٥ وداعيًا إلى الله بإذنيه وسراجًا منيرًا - قابل في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ١٦ وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ كل صفة منها بخطابٍ مناسب؛ فحذف مقابل الشاهد؛ لدلالة السياق عليه، والتقدير: فراقب أحوال أمتك، وقابل المبشر بالأمر ببشارة المؤمنين، وقابل النذير بالنهي عن مراقبة الكفار والمنافقين والمبالاة بأذاهم؛ لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر - والأذى لا بد له من عقاب عاجل أو أجل - كانوا مُنذرين به في المستقبل، وقابل الداعي إلى الله بتيسيره بالأمر بالتوكل عليه؛ فإن من توكل على الله يسر عليه كل عسير، وقابل السراج المنير بالاكتماء به تعالى؛ فإن من جعله الله برهانًا نيرًا يهدي الخلق حقيق بأن يكتفي بالله عن كل ما سواه⁽¹⁾.

التشابه اللفظي:

تكفل الله ﷻ
بتوعد من يؤدي
النبي، ومن
يؤدي المؤمنين
من بعده

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ آتَى اللَّهِ وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ١٧ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٨ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ١٩ [الأحزاب: 1-3]، وقال تعالى هنا: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ١٦ وَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذْنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، وبين الموضعين فروق:

الأول: بُدئت السورة بالأمر بتقوى الله تعالى، ثم باتباع الوحي، ولم يذكر ذلك هنا؛ لأن هذا الأمر مناسب لبدء السورة، ولم يذكر شيء يتطلب تكراره.

الثاني: انفرد الموضع الثاني بقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذْنَهُمْ﴾، وهذا

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 234، والتسفي، مدارك التنزيل: 3/ 36.

مناسبٌ لعددٍ من الأذى المذكور قبل هذا الموضع وبعده من الأحزاب، ومن بني قريظة، ومن نساء النبي ﷺ حين طلبوا الدنيا، ومن المؤمنين حين جلسوا في بيوت النبي ﷺ بعد الطعام بلا داع، وحين رغب بعضهم في نكاح أزواج النبي ﷺ بعده، ولذلك تكفل الله ﷻ بتوعد من يؤذيه، ومن يؤذي المؤمنين من بعده، وختم السورة بأن نهى المؤمنين عن أن يؤذوا رسول الله كما آذى اليهود موسى ﷺ.

الثالث: اشترك الموضعان في النهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، وبالأمر بالتوكل على الله، وهما أمران لازمان للنبي ﷺ منذ البعثة، والإعلان بالدعوة، حتى أتم الله عليه نعمته بالنصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وكل ذلك علامة على قرب أجله، فهما شاملان كل حياته الدعوية ﷺ، وهما كذلك مأوى لكل داعية في كل زمان ومكان من بعده، والركن الشديد الذي يركن إليه، فكان التكرار في سورة مليئة بالأذى والشدائد، دافعًا إلى التذكير بعدم التنازل عن ثواب الدين، والتوكل على الله في سبيل تحقيق ذلك، وكفى بالله وكيلًا.

❖ الفروق المغمية:

البشر والشُرور:

البشر سرورٌ ظاهر، والبشارة والخبر السار تظهر آثارهما على البشارة لا سيما الوجه، كما أنه فيه معنى الحسن الظاهر على الوجه أيضًا؛ لأن السرور القلبي يلقي على الوجه بهاءً وإشراقًا، ولذلك وصفت وجوه المؤمنين يوم القيامة بالاستبشار، قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۖ صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: 38-39]؛ فالتبشير استخدم في إخبار المؤمنين بما يسرهم في الدنيا والآخرة، أما السرور فيختص بالقلوب غالبًا، وهو فرح خالص خفي، وقد يظهر أثره بشرًا وحبورًا.

البشر أعم من
السرور وأنفع
لصاحبه وأظهر

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والأربعون،
سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سبأ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سبأ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.
مج. 45، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 3-98-732-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 45: المجلد الخامس والأربعون، سورة الأحزاب من الآية 26 إلى سورة سبأ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 3-98-732-9948-978

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9766833 بتاريخ 2025/01/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»